الفصل الثّاني

العلم قبل العمل

العلم ضرورة، فهو الذي يرفع الجهل، ويزكي النّفس، ويطهّر الرّوح، ويمنح صاحبه القدرة على حمل الأمانة وأدائها، بفهم، وصبر، وما ألذّ العلم، وطريقه، ولو كان صعبًا وشاقًّا.

عمر

الخطوات الأولى

وظيفة الأبوين مزيج من وظائف متداخلة، فهما سبب حياة الأبناء، ولذريّتهما عليهما واجب الرّعاية، وما يتبع ذلك من غذاء، وكساء، وتطبيب. وللأبناء أيضًا على والديهم واجب في منحهم الأمان والاستقرار النّفسي، من خلال تهيئة بيئة هادئة متصالحة مع ذاتها، وإشاعة أجواء الحوار والثّقة في جنبات المنزل.

كما أنّ على الأبوين واجب التّربية والتّوجيه، ومزج الجدّية بشيء من التّرفيه، على ألّا يكون أصلًا في الحياة مهما بلغت رفاهيّة الأسرة، وعلى الوالد خصوصًا واجب النّفقة بالمعروف، ويشترك الوالدان في أعظم واجب، وأخطر مهمّة، ألا وهي

التّعليـم، ولقـد أدى والداي هذه الأمانة بإخلاص وتفانٍ، وأشـهد الله على ذلك.

ومـن هذا الباب، كان من تمام عنايـة الوالد، وكمال حرصه، أن اختار لي ولأشقائي أفضل المدارس في أيامنا، حيث ألحقني عـام ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م بمعهـد الأنجال، ثمَّ معهـد العاصمة فيما بعد، ولم يتركنا بل كان يتابع سـير دراسـتنا، ويستقصي أحوالنا التَّعليميّة.

وكنـت وأشـقائي ندرس فـي المعهـد ذاتـه، مـع اختـلاف في سـنوات الدِّراسـة ومراحلها، وقد سـاوى الوالدان بيننا في ذلك من كلّ زاوية قدر اسـتطاعتهما، ومنحونا من نصحهم، ووقتهم، ودعائهـم، مـا أصبحنا نلمس أثـره يومًا بعد يـوم، ولا نقوى على مكافأتهـم علـى جميـل الصّنـع، وجـودة العمـل، ولعـلّ الله أن يتولاهمـا بمـا يرضيهما يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ إلّا من أتى الله بقلب سليم.

رفاق الدّراسة

حظي المعهد بنخبة من المعلمين والأساتذة والمربين، ومن أمثلتهم المربي الكبير، الشَّيخ عثمان بن ناصر الصَّالح، الذي يرتبط اسمه بنشأة المعهد، والأستاذ الشَّيخ أحمد فرح عقيلان، والشَّيخ عبدالرّحمن العوين، والأستاذ محمد ضياء الدّين الصَّابوني الملقب بشاعر طيبة، رحمة الله عليهم، وعلى من لم أذكره منهم، وكانوا من السُّعودية، ومن عدّة بلدان مصريّة، وشاميّة، وعراقيّة، ومغاربيّة.

وزاملني في المعهد عدد من الأصدقاء، وفيهم الآن علماء، وأمراء، ووزراء، ومهنيون، وأكاديميون، ورجال أعمال، وينتمون لمناطق مختلفة من المملكة، ومنهم الحيُّ، وفيهم من توفاه الله، وسبقنا إلى الدّار الآخرة.

وقد نأت بنا المسافات، وباعدت بيننا الدُّنيا وصروفها، ولي معهم ذكريات جميلة، في تلك الأيام الأنيسة، وما أجمل العودة للأماكن القديمة، وما أحلى اللُّقيا بأصحاب الطّفولة والشّباب، وهي مشاعر منعشة يصعب وصفها، وإنّه لمن فرحي الكبير

أن أقضي وقتًا معهم، سواءً كان بترتيب أم مصادفة؛ فلزمالة الدّراسة لديّ مكانة كبيرة، وقدر عظيم.

دهشة الارتجال

ممّا لا أنساه البتة، أنَّ الشَّيخ عثمان الصَّالح كان يتجوّل في طابور الصَّباح كعادته، ووقف بجواري قائلاً بصوت خفيض: عمر! أنت الخطيب الارتجالي اليوم! وكانت مفاجأة بالنّسبة لي، حيث سأخرج أمام جميع المعلمين والطّلاب، لأرتجل كلمة غير مكتوبة مسبقًا! لكنّي تشجعت بعون من الله، وألقيت كلمة نالت إعجابهم، وزادت من ثقتي بنفسي، وتكرّر بعد ذلك اختياري لإلقاء كلمات مرتجلة.

وأنا على يقين بأنَّ قدرة المرء على الخطابة، والحديث للجمهور، من أولى ما يجب تربية النَّاشئة عليه، وتعويدهم على فعله وتكراره؛ لأنّه يستلزم بناء ثقة داخليّة كبيرة، مع امتلاك ناصية البيان، والعناية بالثّروة اللّغوية من المفردات والتّراكيب، وحسن اختيار التّعابير للجمهور المخاطب.

وإنّه لمن التّحديث بنعمة الله، أنّي أضحيت لا أتهيّب من صعود المنابر، مع اعترافي بوجود الأصل الطّبيعي من الهيبة، والقدر المعقول منها، الذي لا يجعل الإنسان يحجم عن ارتقاء المنصّة، وإنّما يحتشد لهذا الموقف إذا كان على علم سابق به، أو يقدِم غير وجل إن فوجئ بطلب من قبيل ما فعل معي الشّيخ الصّالح، فلصعود المنابر مهابة لا تنكر.

والحمد لله، أنّي ارتقيت المنابر في مناسبات كثيرة، وتحدّثت أمام جمهور داخلي وخارجي، بلغة عربيّة أو أجنبيّة، وبحضور الإعلام أو بغيابه، وكنت خلال هذه التَّجارب الخطابيّة موفقًّا وراضيًا عن أدائي، وأسعى لتحسين طريقتي، وزيادة قدراتي كلَّ مرّة.

ومن نعمة الله وقوفي الواثق أمام الطّلاب والطّالبات دونما لجج أو تردّد، والفضل بعد الله يعود لأحاديث الوالد الفصيحة معنا، وملاحظتنا له وهو يخطب في جموع النّاس، ثمّ التّدريب العملي مع مديرنا الشّيخ عثمان الصّالح، ولا يخفى أنَّ ثبات الأستاذ، وانطلاقته في الحديث، يجذبان انتباه الطّلاب، ويسترعيان عنايتهم.

نشاط دؤوب

ممّا أذكره خلال سنوات الدِّراسة، أنَّ معلّم اللّغة العربيّة، الأستاذ الشَّاعر الصَّابوني، كان يبدأ كلَّ حصّة دراسيّة، بذكر عدد من الأخطاء اللّغويّة الشّائعة، ويناقشها معنا، لنكتشف موضع الخطأ، وعلّته، وطريقة إصلاحه، وكانت هذه الدّقائق العشر تدريبًا عمليًّا مؤثرًا فينا بإيجابيّة كبيرة، ومع بعد العهد، إلّا أنّي لم أنس فعله وطريقته رحمه اللّه، وكأنّه أمام ناظريّ حين يدخل فصلنا بابتسامة مشّعة، ويبدأ الدّرس بهذا التّدريب.

ومن أنشطة المعهد، إقامة لقاء ثقافي عام، عصر كلّ يوم ثلاثاء، وفيه محاضرات في موضوعات مختلفة، أدبيّة، واجتماعيّة، وتاريخيّة، وفكريّة، ويتابعها بعناية الأستاذ صالح جمال من مصر، ويحرص المدير الشّيخ الصّالح على حضور الطّلاب إليها.

وكان ترتيبي خلال سنوات التّعليم العام من المتقدّمين، حيث كنت دومًا من ضمن الأوائل، وكان لحرص والدتي على ذهابنا اليومي إلى المدرسة، ومتابعة الوالد لنا ولمعلمينا أثره البالغ في التّفوق الدّراسي، والمواظبة الدّائمة؛ حتى إنّ الوالد

كان يتعمَّد إيصالنا للمدرسة في الأيّام المطيرة، قطعاً لأي حجّة تقود نحو الغياب.

أوّل طبيب

بعد أن أنهيت المرحلة الثّانويّة، أصبحت قريبًا من تحقيق حلم ظلَّ ينمو معي، ويرافقني في خواطري، وأحاديثي لنفسي، وفي تفكيري، وتخطيطي، والحمد لله أن أعانني، وهيّأ لي دراسة الطّب، فمع كثرة دارسي الهندسة، والاقتصاد، والإدارة، من أبناء أسرتي، إلّا أنّي نلت شرف لقب أوّل طبيب في أسرة آل الشّيخ، ولهذه الأوليّة تبعاتها، ولا مناص من تحمّل مسؤوليتها.

وكانت الخيارات المتاحة للابتعاث متعدّدة حينذاك، وقد سبقني شقيقاي عبدالرّحمن في الابتعاث لأمريكا ثمَّ بريطانيا، ومحمّد في بعثته الدّراسية بأمريكا، فاخترت بعد سؤال واستشارة، دراسة الطّب في النَّمسا، حيث التحقت بجامعة فيينا، عام ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

وتعدّ هذه الجامعة من أعرق الجامعات في العالم، وأقدم جامعة في النّمسا؛ حيث تأسّست في القرن الميلادي الرّابع عشر. وأميز التّخصصات فيها الطّب والقانون، وتخرّج فيها فرويد، وأحد رؤساء النّمسا، فضلًا عن غيره من السّاسة، وعدد من الحائزين على جوائز نوبل في الطّب، والأدب، ومجموعة من المفكّرين الكبار، ورجال الكنيسة المؤثرين، ومن الموافقات أنَّ أول طبيبة في النّمسا تخرجت في هذه الجامعة عام ١٨٩٤م.

ناصية اللّغة

حينما سافرت لطلب العلم، وابتعدت عن والديّ وبلادي وأهلي، وغادرت مشيّعًا بالدّعوات الصّادقة، عقدت العزم على أن آخذ الكتاب بقوّة، وألّا توهن مني الإرادة، أو تلين العزيمة، كي أحقّق منية النّفس، وأبلغ مرامها، فما جدوى الابتعاد دون نتيجة مشرّفة؟

ومن فضل الله عليّ، أن أجدت اللّغة الألمانية؛ وتمكنّت منها سواء في الجامعة أو في الشّارع، وحرصت على الاحتفاظ

بإجادتي للألمانيّة بعد نهاية الدّراسة من خلال القراءة، والتّواصل، والزّيارات المتكرّرة للجامعات، والمشاركة في المؤتمرات.

وسبق لي دراسة دورات مكثّفة في اللّغة الإنجليزيّة حتى أتقنتها، وكان والدي يذكر ذلك كثيرًا، ويقول بانتشاء واضح: عمر يجيد مع العربيّة لغتين! وإنّها لنعمة من الله تستوجب الشّكر، وأن أكون خير سفير لبلدي، وأهل لساني وديني، فليس حسنًا مجرّد اللّغو بلسان أعجمي دون أن أنقل منه لقومي ما يفيدهم، وليس مقبولًا أن أستصغر لغتي أمام غيرها؛ فكيف حين تكون لغتي مقدّسة بالقرآن، ومحفوظة بحفظ الله له؟

وإنّه ليزعجني أن تكون بعض المؤتمرات واللّقاءات المعقودة في العالم العربي بلسان أجنبي دونما مسوغ، وكان الأجدر أن تستخدم العربيّة لغة أصليّة، ثم يستعين من لا يفهمها بالتّرجمة الفوريّة أو غيرها، على أن يكون لنا جهد في التّرجمة والتّعريب ولو بعد حين، فجلّ دول العالم تدّرس الطّب بلغاتها المحليّة.

منهج متين

درست في الفصول الثّلاثة الأولى مع اللّغة، علوم الأحياء، والفيزياء، والكيمياء، والرّياضيات، ثمّ بدأت بدراسة المنهج الطّبي المعتمد في الجامعة، وكان منهجًا متينًا، يعطي للطّالب قدرًا كبيرًا من العلم، ومقدارًا ضخمًا من المعلومات، واستبانت لي هذه المميزات في سنوات الامتياز، وعند الالتقاء بآخرين درسوا في جامعات أخرى.

ومع نهاية كلّ سنة دراسيّة، أعود لزيارة الأهل، وكانت هذه الأوبة أشبه بالتّزود بالوقود، وشدّ أحزمة العزيمة، وكنت ألقى عناية فائقة من والديّ، وفرحًا غامرًا من أشقائي بلا استثناء، وسعادة واضحة من الأقارب والمعارف.

وتتلمذ معي في جامعة فيينا طلّاب عرب ومسلمون من بلاد مختلفة، كما درّسنا في الكلية أساتذة عظام، وأطباء كبار، لهم مكتشفات، ومؤلّفات، وسبق علمي، وبعضهم من الأسماء اللّامعة في الطّب، ومنهم الحاصلون على جائزة نوبل وغيرها.

وحرصت على تطبيق سنة الامتياز في مستشفى الملك خالد الجامعي عام ١٩٨٣م، بعد نهاية الدّراسة في فيينا، وحصولي على شهادة دكتوراه في الطّب (MD)، وهي شهادة متميّزة عن غيرها من شهادات كلّيات الطّب.

وأسعدني الوالد بالحضور والمشاركة خلال حفل تخرجي في الجامعة، كما حضر بعض الأقارب والأصدقاء؛ ولحضورهم صدى في نفسي لا أنساه إلى اليوم، فما أعظم من يفرح لفرح غيره، ويسعد بنجاح الآخرين ومنجزاتهم.

تركيز الاهتمام

في بداية التّوجه نحو التّخصّص، فكرت باختيار تخصّص الباطنة أو الأطفال أو الجلديّة؛ لكنّي وجدت نفسي منصرفة نحو الجلديّة، فاستخرت الله، ثمّ قرّرت أن أختاره دون سواه، وهو تخصّص يجمع جلّ فروع العمل الطّبي، ففيه مناعة، وأنسجة، وجراحة، ومن ضمنه تخصّصات دقيقة جميلة، ويعالج الصّغار والكبار.

وبعد ممارسة الطّب بضع سنوات في المستشفى، تيّسرت لي فرصة الابتعاث إلى جامعة بون؛ للحصول على الزّمالة، وإتمام دراسة التّخصص الدّقيق، فسافرت إلى ألمانيا عام ١٩٨٧م، وحصلت على الزّمالة بعد عامين، حيث احتسبوا لي جزءًا من مدّة العمل في المستشفى بالرّياض، ثمّ أكملت سنة في التّخصص الدّقيق، وهو حساسيّة الجلد، وعدت للمملكة بعد الانتهاء منه عام ١٩٩٠م.

وتعدُّ جامعة بون من أشهر الجامعات البحثيّة، وفيها مكتبة غنيّة بالمراجع والمصادر، ونال عدد من أساتذتها جوائز نوبل وغيرها، وتخرّج فيها بعض القياصرة، والأمراء، ورجال دولة كبار، ورجال قانون وشعراء، وأوّل مستشار لألمانيا بعد الحرب العالميّة الثّانية، كما تخرّج فيها مشاهير مثل كارل ماركس، ونيتشه، وغيرهما، ومن الغبطة أنّي درست في جامعتين لهما تصنيف متقدِّم جدًّا على مستوى الجامعات العالميّة.

ثم ودّعت الجامعة، ولم أودّع العلم وطلبه، ولم أترجّل عن مسيرتي في التّعليم والبحث، وإنّي لأعجب ممّن يجعل الشّهادة آخر العهد بالعمليّة التّعليميّة، مع أنّها تمنحك المفتاح لتعبر من

أبـواب مغلقة نحو عالم فيه علوم، ومهارات، وكم يكتشـف المرء كلّما تعمَّق في سبيل العلم أنّه لا يزال بحاجة إلى المزيد!

وعـدتُ إلـى الرّياض كي أخدم بلادي وأهلها، وأردُّ لهم شـيئًا مـن واجب الوفاء، وعرفان الجميل والفضل، وقدّمت أوراقي إلى كلية الطّب في جامعة الملك سعود، فقبلت فيها طبيبًا وأكاديميًّا، وكانـت لـي ذكريات فـي كلّ موضع منهـا؛ بقاعاتهـا، وعياداتها، ومبانيها، ولي فيها مواقف، وأعمال، وزملاء، وطلّاب، ومرضى، وهو ما سندلف إليه في الفصل القادم.